شخصيات الرواية وأشباح التاريخ

سعيد بنگراد

استغرب ألكساندر دوماس الأب، الروائي الفرنسي الشهير، وكان في زيارة إلى مرسيليا، سلوك بعض المرشدين الذين كانوا يَدُلون زوار قصر إيف على الزنزانة "الحقيقية" التي وضع فيها هذا الروائي بطله الكونت دو مونتي كريستو، وهو شخصية تخييلية لا وجود لها في الواقع، ولا يكترثون للزنزانة الفعلية التي قضى فيها فترة من الزمن الثائر والكاتب الفرنسي غابرييل دو ميرابو الملقب ب"خطيب الشعب". وقد علق على هذه الحادثة قائلا: " من ميزات الروائيين أنهم يخلقون شخصيات تقتل شخصيات التاريخ. والسبب في ذلك هو أن المؤرخين يكتفون بالحديث عن أشباح، أما الروائيون فيخلقون أشخاصا من لحم ودم"(1).

قد لا يحيل هذا البوح الاستثنائي، في الظاهر على الأقل، إلا على ما يفصل بين "حقائق" التاريخ، وبين ما يأتي من عوالم التخييل المتنوعة؛ إلا أنه يشير في واقع الأمر إلى تعدد واجهات الهوية وامتداداتها في كل المُنتجات الرمزية. فما بين الرصد الموضوعي لوقائع فعلية قابلة للتصنيف المفهومي المجرد، وبين استيهامات التمثيل السردي ومطاطيته، هناك الحياة، ما يُصنف ضمن جزئيات الوجود الإنساني التي تتطور ، في الواقع، خارج المفاهيم وفي انفصال كلي عن محدداتها المسبقة. ذلك أن ضرورات "التبسيط الزمني" وحدها تدفعنا إلى القبول بمقايضة غنى الوجود بمفاهيم تجريدية تحل محله.

وتلك إشارة إلى أن حكمة الحياة مودعة في الحكايات، أما المفاهيم فتغطية لاحقة لها. وهذا ما يميز بين السرد التخييلي وبين السرد التاريخي، إن "الأول قادر على تقديم حياة كاملة باعتبارها كلا موحدا ضمن زمنية سردية قصيرة جدا (يوم واحد)" (2)، في حين يحتاج التاريخ إلى

وقائع مكتفية بذاتها هي ما يشكل عند المؤرخين استعادة زمنية مضت هي مصدر الحكم والتصنيف.

وذاك هو الحد الفاصل بين عوالم المؤرخ وتلك التي يتحرك الروائي داخلها؛ إن ما يزدريه الأول أو لا يثير اهتمامه هو ما يشكل عند الثاني مادة السرد ومضمونه الفعلي. وهو ما يعني، بلغة دوما، أن "أشباح" التاريخ ليسوا، في حقيقة الأمر، سوى شخصيات عارية من كل "التفاصيل" و"الهويات الاجتماعية" المخصوصة، لقد تنازلت هذه الكيانات عن انفعالاتها لكي تسكن ذاكرة زمنية من خصائصها أنها تُبَسط وتختصر وتُجرد.

والحاصل أن المؤرخ يكتفي ب "مفهمة" الشخصيات وتحويلها إلى بؤرة لمعنى التاريخ نفسه، فتلك غاياته من كل الوقائع التي تصفها حكايات تلتقط الوظيفي، في حين يعيد لها السرد التخييلي ما ضيعته المفهمة وغطى عليه التجريد. فعَلِيُّ " المحكيات الشعبية"، لا يشبه عَلِيَّ التاريخ إلا قليلا، يشكل الأول قصة مفردة في الحياة وفي الوجدان، وهوالذي تعرف عليه الناس في حكايات الحلقة والمرويات الشعبية، أما الثاني فمجرد عنصر داخل معادلات من طبيعة سياسية أو دينية أو مذهبية.

لذلك، لا ينصب التمييز بينهما على تقابل ستاتيكي بين ما ينتمي إلى "حقيقة علمية" منزهة عن الباطل، وبين ما يُصنف ضمن انفعالات خيال جامح لا تحكمه قيود أو ضوابط، بل هو في الأصل رابط لا يُرى بين "ديمومة" في الزمن تضمها وقائع تتجسد في فعل بعينه، وبين ممكنات التطور داخله، أي بين التعبير عن "أنا" متفردة لا تشبه أحدا، وبين انتمائها إلى زمنية هي ما يحددها ويُصَدِّق على مساراتها في الحياة. فمن لا "يشبه" أحدا ولا يصنف ضمن خانة، يشكو من خصاص في الهوية والانتماء.

وهذا ما يفسر أن التساؤل عن هوية شخص ما يقود بالضرورة إلى رواية أحداث قصة لا يمكن فصلها عن تاريخ الأمة كلها . فالاسم وبطاقة التعريف والانتماء الاجتماعي واجهات دالة على الوظيفة وحدها، أما مضمون الهوية فتستوعبه حياة تُبنى في تفاصيل الحكايات. وهو ما يعني أن الوجود في الذاكرة أقوى من الوجود في الأرض، وتلك هي حالات النازحين والمهجرين والمنفيين

(انتبه الصهاينة إلى أن رمز الكوفية عند الرأي العام العالمي كبير جدا فضموها إلى متاحفهم الخاصة باعتبارها شاهدا على "عبرية" دولتهم).

لكل هذه الأسباب، لا يمكن للهوية أن تتبلور استنادا فقط إلى وقائع يُصَدِّق عليها العلم أو يجيزها التاريخ، كما لا يمكن أن تكون مجرد إخبار عن وضع اجتماعي أو انتماء ديني، إنها تتشكل، بالإضافة إلى ذلك كله، ضمن كل ما يمكن أن تنتجه الممارسة، مجازا وحقيقة، وتحتفظ به الذاكرة باعتباره جزءا من تاريخ شامل هو ما يسميه بول ريكور "الهوية السردية"، أي ما يوحد بين "الفعل الواقعي" القابل للتصديق الواقعي، وبين ما يأتي من المخيلة واستيهامات الوجدان. فكثير من "الكبار" في الفكر والسياسة والاقتصاد لا يفصلون، في سيرهم، بين وقائع تاريخ مفتوح على الماضي والمستقبل، وبين كم زمني معدود، هو ما تستثيره حياة خاصة محدودة في الزمان وفي المكان؛ إنهم لا يضعون، في واقع الأمر، فواصل بين ما يؤكده "التوثيق" التاريخي، وبين ما يمكن بناؤه ضمن ذاكرة تستعيد وقائع وفق ممكنات "الفهم" في الحاضر، لا ضمن حقائق تبلورت في الماضي.

لذلك، ف"السردية" في هذا السياق أوسع من مجرد ترتيب زمني لوقائع مصدرها التاريخ وحده، وأشمل أيضا مما يمكن أن يُصنف ضمن الرواية والقصة ومشتقاتهما. إنها ما يصالح بين كل أنشطة الذهن في المفهمة والتشخيص على حد سواء، لذلك فهي تتسع لكي تشمل كل منتجات السرد، ما يشير إلى سرديات "طبيعية" تلتقط اليومي والحدثي المباشر، وما يُصنف ضمن "سرديات اصطناعية" تخلق عوالم تخييلية ممكنة تتطور ضمن معطيات الواقع، وفي انفصال كلي عنه في الوقت ذاته. إنها تُعد، في جميع هذه الحالات، الوسيلة الوحيدة التي من خلالها نُصَرِّف الزمن ونُسْكِنه انفعالاتنا. فالروح الإنسانة مودعة في مرويات هي الشاهد الأكبر على معنى زمنية الحياة ذاتها (الدازين بمفهوم هايدغر)، فنحن لا نستطيع قول أي شيء عن الزمن خارج ما يمكن أن يؤثثه من وقائع.

استنادا إلى هذه الآلية السردية الشاملة وجب التمييز بين واجهتين للهوية: ما يسميه ريكور الهوية العينية (identité ipseité) والهوية المماثلة (identité mêmeté)، يتعلق الأمر بوحدة في الوجود تتشكل من كيانين من طبيعتين مختلفتين، لكنهما يعودان إلى ذات توحدها الزمنية ذاتها: تشير الأولى عنده إلى ما يشكل تمثلا ثابتا وقارا للأنا في الزمان، فالمرء هو ذاته من خلال اسمه وانتمائه

منذ أن وُلد إلى أن يموت، إنه جماع ما تراكم ضمن سيرورة تتم داخل الزمن، ولكنها لا تحيل على أحد آخر غيره؛ في حين تُحيل المماثلة على مُجمل الأدوار التي قام بها في حياته منذ أن كان طفلا يحبو، ثم أصبح تلميذا وأستاذا أو شرطيا أو مقاولا أو مهمشا بلا تاريخ شخصي. تقتضي الأولى ديمومة في الزمان، عادة ما يحميها ويحافظ عليها الاسم الذي من خلالها يحضر الفرد في ذاكرة الناس وسجلات السلطة، في حين تشير الثانية إلى سيرة متطورة داخله لا يكتشف تحولاتها سوى الآخرين الغائبين(3).

بعبارة أخرى، تشير الواجهتان إلى الفرد من حيث هو "أنا" تحيل على كائن بيولوجي بخصائص بعينها، ولكنه يتحرك ضمن زمنية تدمر في طريقها كل شيء. إنها تغير من مظهره ووظائفه وواجهاته الاجتماعية، ولكنها تحتفظ بالثابت فيه، من حيث هو موجود من خلال هوية اسمية ثابتة لا تتحرك (مراحل العمر وما تحدثه في النفس والجسد). إننا نُمسك من هذا "الدوام في الزمن" بما يشكل "ثابتا" في الذات لا يتغير، ولكنه لا يمكن أن يكون كذلك إلا في علاقته بعناصر التحول داخلها (لا يمكن أن نتصور شخصا يكبر في العمر، ولكنه لا يتغير في المظاهر). وهي ثنائية لا تحدد تاريخ الفرد وحده، بل تشمل هوية الأمة بأكملها، إنها تشير إلى قدرتها على التجدد ضمن ثوابت لحظة التأسيس ومحدداتها الإيديولوجية أو الدينية.

وهي صيغة أخرى للقول، إن الهوية لا يُدوِّن تفاصيلها تاريخ مكتوب أو مروي فقط، بل هي مجموع ما احتفظت به الذاكرة من مسرودات تُعَلِّب الزمن في أمجاد وهزائم و"نكبة" و"نكسة"، هي وحدها ما يشكل مضمون الزمن الذي نتداوله من خلالها. إننا نُغطي على الفراغ الزمني الحاضر، بزمنية لا تتحدث إلا عن المجد الذي يمكن أن يعود. وهذه السردية موجودة في الخرافات والأساطير والمرويات البسيطة، وموجودة في كل نصوص السرد "العالم". فكل ما استعصى على التحديد المفهومي، أو انفلت من الضبط العلمي تستعيده الذاكرة السردية، وتعيد بناءه ضمن ممكناتها في التمثيل التشخيصي؛ فما نعرفه حقا عن بدايات الخلق هو ما يقوله السرد، لا ما تشرح تفاصيله النظريات العلمية: إن ما يحتفظ به الوجدان الشعبي ويطمئن إليه هو وقائع الحكايات، لا ما تأتي به المعادلات الرياضية والفيزيائية، لذلك عادة ما لا نقبل بالحقائق العملية.

وقد يكون هذا التصور هو الذي تَحَكَّم، من زاوية ما، في صياغة الحوليات الدينية مجتمعة. فقد تصور القيمون على المؤسسات الدينية تاريخا يستمد مضمونه من زمنية "مخصوصة" تتحقق في حكايات تتطور خارج التاريخ الإنساني العام، ذلك أن المعتقد فيها هو الذي يبلور الزمنية و"يوجهها" و"يستعملها" من أجل تلوين سيرورته وفق غايات يتحدد داخلها بدء الكون ومنتهاه. بعبارة أخرى، لقد كانوا، في ما يبدو، يصوغون التاريخ استنادا إلى مفاهيم مسبقة من قبيل "الاختيار" أو "الخطيئة" أو "الاستخلاف"، وهي المحددات المركزية التي قامت عليها الديانات السماوية الثلاث.

ومع ذلك، لا وجود لتناقض بين عالمي التاريخ والتخييل إلا في الظاهر، أما في الجوهر فهما من طبيعة واحدة، ويشكلان مصدرا مركزيا لبناء "الهوية" والاحتفاء بمكوناتها. فمن خلال التاريخ، نُمَفْهِم" الحياة ونُمسك بمنطق التطور فيها، أما في السرد التخييلي فنُعيد المفاهيم إلى أصلها الأول، إنها سلسلة من الحالات المشخصة هي ما تلتقطه العين ويستوطن الوجدان، وتحتفي به الذاكرة الشعبية. إننا نُسرب، من خلال السرد، حقائق انفعالية إلى "عوالم ممكنة"، تستطيع الذاكرة الرمزية وحدها استيعاب مضمونها: فأين يبدأ التاريخ الفعلي للإسلام، وأين تنتهي كل الحكايات التخييلية التي تحيط بوقائعه الفعلية؟

استنادا إلى هذه "الحاجات" المضافة يمكن استيعاب حالات التراكب بين سرد يؤرخ للحظة "واقعية" لا تحتفظ من فعل الفاعل سوى بمضمونه "الخام"، وبين حكايات "مفصلة" تُبنى في الاستيهام التخييلي. وهذا هو الفاصل بين "أشباح" التاريخ، وبين "الكائنات الحية" في السرد التخييلي. إننا نَتَعقل التاريخ من خلال الأولى، ونعيد امتلاك الحياة من خلال الثانية. لا تموت الأولى بظهور الثانية، كما تصور ذلك أليكساندر دو ماس، بل تُبعث حية في تفاصيلها. " فالكثير من الشخصيات الأسطورية أصبحت أبطالا لمحكيات مكتوبة، وفي المقابل هناك الكثير من شخصيات المحكيات أصبحت شبيهة بأبطال الخرافات أو الأساطير . ذلك أن الحدود الفاصلة بين الصور الخرافية والآلهة الأسطورية والشخصيات الأدبية والكيانات الدينية ليست محددة دائما بما يكفي"(4).

لذلك قد نشكك في كل شخصيات التاريخ، أو نعيد كتابة تاريخها وفق ما جَدَّ من الوثائق والمستندات، ولكننا لا نستطيع أبدا النيل من شخصية أبدعها السرد التخييلي (إيكو). إن شخصية "السي سيد" في الرواية هي المعادل التخييلي لكل ما يمكن أن يقوله التاريخ المفهومي عن علاقات إنسانية يحكمها منطق الذكورة وحده؛ يتعلق الأمر بتكثيف كل القصص الدالة عليه في مفهوم ينزع عنه حالات التشخيص. وهو ما يعني، أن حقيقة التاريخ قابلة "للتعديل"، أما الحقيقة التي تصاغ في التخييل "فثابتة"، إنها موجودة باعتبار حقيقتها في الوجدان، لا استنادا إلى وقائع فعلية تُصدق عليها.

لذلك عادة ما نثق في الحكايات أكثر مما تستهوينا وقائع التاريخ "الصامتة"، " فالتخييل يوحي إلينا بأن الرؤية التي نكونها عن العالم الواقعي قد تكون هي الأخرى ناقصة، تماما كنقصان الرؤية التي تملكها شخصيات التخييل عن العالم الذي تتحرك فيه. ولهذا السبب، عادة ما تصبح الشخصيات التخييلية الكبيرة نماذج للشرط الإنساني "الواقعي " "(5). وهو ما يُلغي أو يشوش على الحدود التي تفصل بين "عوالم فعلية" هي التي تستوعب الممارسة النفعية ، وأخرى لا تعيش إلا في الذاكرة المخيالية.

لذلك سيكون العالم موحشا وفقيرا حقا بدون شخصيات أبدعها التخييل، ففيها وحدها دفء الوجود وحرارة الفعل الإنساني معا ، فلو أفرغنا الذاكرة من كل الشخصيات التي جاءتنا من المسرودات التخييلية لتضاءلت تجاربنا في الحياة. إن هذه الشخصيات هي الجسر الضروري نحو قول شيء ما عما يتحقق في العيان العيني.

1-انظر : أومبيرتو إيكو : اعترافات روائي ناشئ، ترجمة سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، 2014، ص38 .

2-Dorrit Cohn : Le propre de la fiction , éd Seuil,2001,p.36

3-انظر مقالنا حول السيرة الذاتية ، علامات العدد 38 ، 2012

3-نفسه ص 130

4-نفسه ص 133